دفاعاً عن بلاغة الدولة العباسية قراءة ثقافية في مقدّمة (أدب الكاتب) لابن قتيبة

غسان إسماعيل عبد الخالق *

Dr.ghassan62@hotmail.com

تاريخ تقديم البحث: 2023/1/24 **تاريخ قبول البحث: 2023/5/30**

ملخص

اعتنت الدولة العباسية – منذ نشوئها– بالنثر عموماً وبالنثر الديواني الرسمي خصوصاً؛ انطلاقاً من قناعتها بأن بلاغتها ركن رئيس من أركان سيادتها السياسية. لكن هذه العناية التي تواصلت حتى نهاية عهد المأمون، راحت تتراخى وتتقهقر بدءًا من عهد المعتصم، لأسباب تتعلق بتكوينه الثقافي واستكثاره من المماليك الترك، مروراً بعهد المتوكل الذي استشعر قدراً من تأزّم البلاغة السياسية للدولة العباسية؛ فلم يدّخر وسعًا لإحداث تغيير ملموس. لكن هذا التغيير لم يكن كافياً بسبب سيطرة الأتراك على مفاصل الدولة، واستفحال الشعوبية والزندقة في أوساط الكتّاب؛ فجاء كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة، ليمثل –بمقدّمته– إدانة حازمة لمظاهر هذه الأزمة البلاغية، وليجسّد – بفصوله الأربعة – دليلاً وافياً ومرشداً أمينا للراغبين من الكتّاب، في استدراك ما يجب استدراكه من معارف و مهارات. وقد سعى هذا البحث لتسليط الضوء على ملامح التشخيص الجريء الذي اضطلع به ابن قتيبة، من منظور النقد الثقافي.

الكلمات المفتاحية: العصر العباسي، البلاغة السياسية، النقد الثقافي.

* أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها/ كلية الآداب والفنون، جامعة فيلادلفيا.

@ حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن

In Defense of the Rhetoric of the Abbasid State: A Cultural Reading of the Introduction to "The Writer's Literature" by Ibn Qutaybah

Ghassan Ismail Abdel Khaleq*

Dr.ghassan62@hotmail.com

Submission Date: 24/1/2023 **Acceptance Date: 30/5/2023**

Abstract

The Abbasid state has taken care of prose in general and official Diwan prose in particular since its inception. This is based on its belief that eloquence is a crucial pillar of its political sovereignty. However, this care, which continued until the end of the reign of Al-Ma'mun, started to decline and retreat from the era of Al-Mu'tasim due to reasons related to his cultural background and the increase in Turkish mamluks. It continued through the era of Al-Mutawakkil, who sensed the deterioration of the political eloquence of the Abbasid state, and he did not spare efforts to bring about tangible change. However, this change was not sufficient due to the Turks' control over the state's mechanisms, and the rise of populism and skepticism among writers. Ibn Qutaybah's book 'Adab al-Katib' came as a resolute condemnation of the manifestations of this rhetorical crisis, representing, in its introduction, a comprehensive and faithful guide for writers seeking to rectify the knowledge and skills that need rectification. This research seeks to highlight the features of the effort undertaken by Ibn Qutaybah from the perspective of cultural criticism.

Keywords: Abbasid Era, Political Rhetoric, Cultural Criticism.

* Professor, Department of Arabic Language and Literature - College of Arts and Letters, Philadelphia University

© Copyright reserved for Mutah University, Karak, Jordan.

مقدّمة:

استأثرت البلاغة السياسية مؤخراً، بعناية متزايدة تؤكّد ضرورة انفتاح الدرس النقدي على المشهد الحياتي العام، بدلاً من مواصلة التسمّر أمام النص الأدبي البحت. ونظراً لما يوفره الموروث الأدبي العربي –وخاصة على صعيد النثر– من فرص استثنائية للاستنطاق؛ تاريخيًا وفكريًا وسياسيًا، فقد سعى الباحث لمعاينة النثر السياسي في العصر العباسي الأول بوجه عام، وسلّط الضوء على مقدمة (أدب الكاتب) لابن قتيبة بوجه خاص، من منظور النقد الثقافي. وعلى الرغم من أن العصر العباسي الأول، يمور بالنصوص النثرية التي يمكن تحليلها من هذا المنظور، فإن مقدمة (أدب الكاتب) تحديداً، تمثل بياناً صريحاً يهدف إلى تشخيص أزمة النثر السياسي العباسي، تشخيصًا مشفوعاً بالأمثلة والأسماء، فضلاً عن التطوع لإيجاد المخرج المثالي لهذه الأزمة. ومع أن الباحث لم يدّخر وسعاً لرصد الملامح الجمالية العامة في مقدّمة (أدب الكاتب) مثل: الإسهاب، والاقتضاب في التحميد، والإسراع في الوصول إلى الغرض الأساس، والوضوح الذي لا يحتمل اللبس، إلا أن عنايته انصبت على إبراز ملامح النسق العام المضمر في هذه المقدّمة، وهو إدانة عجمة وركاكة البلاغة السياسية للدولة العباسية، بذريعة النسق العام المعلن وهو: تثقيف كتّاب الدواوين الرسمية.

المشهد البلاغي العام:

هناك أمران يمكن استخلاصهما من رسالة عبد الحميد الكاتب (ت132هـ/750م) إلى الكتّاب، وهما: أولاً: رفعة المنزلة التي يتبوّأُها هؤلاء الكتاب وخطورة الدور الذي يضطلعون به لدى الخلفاء والأمراء والولاة؛ فهم ليسوا أفضل الخلق بعد الأنبياء والملوك فقط، بل إن بهم أيضاً (ينتظم المُلْك، وتستقيم للملوك أُمورهم) [1].

ويتابع عبد الحميد الكاتب مخاطباً هؤلاء الكتّاب: "بتدبيركم وسياستكم يصلح سلطانهم، ويجتمع فيئهم، وتعمر بلادهم؛ يحتاج إليكم المَلِكُ في عظيم مُلْكه، والوالي في القدر السّني والدّني من ولايته؛ لا يستغني عنكم منهم أحد، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم منهم، موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم

(1) صفوت، أحمد زكي (ت1395هـ/1975م)، *جمهرة رسائل العرب*، ط1، المكتبة العلمية، بيروت، 1937، ج2، ص508.

التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون" [1]. ثم يختم هذه الخلاصة البليغة قائلاً: "أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلها، وصارت إلى محاصِلها، ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصحائهم؛ فأمتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم" [2].

ثانياً: تكاثرُ هؤلاء الكتاب وتمكّنُهم، إلى حد يسوّغ لنا الاعتقاد بأن رابطة ما صارت تجمعهم وتلزمهم بمدّ يد المساعدة لمن جار عليه الزمن أو أقعدته الشيخوخة منهم: "وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله ويثوب إليه أمره، وإن أقعد الكبر أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظّموه وشاوروه، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته"[3].

ويبدو أن معظم هؤلاء الكتّاب الذين لا نحتاج – بعد وصف عبد الحميد الكاتب لهم – إلى ما يشرح طبيعة وظائفهم أو أهمية أدوارهم التي كانوا يؤدّونها في أواخر عهد الدولة الأموية، سلّموا بالأمر الواقع، واستأنفوا أعمالهم في ظل الدولة العباسية الناشئة؛ بدليل أن عبد الله بن المقفّع – على سبيل المثال – كان يعمل في زمن الأمويين كاتباً لعمر بن هبيرة في كرمان، ثم كاتباً لابنه يزيد، ثم إذا به يعمل كاتباً لعيسى بن علي عم أبي جعفر المنصور، ويعلن إسلامه على يديه ! [4] .

ومن المرجح أن المؤسس الحقيقي للدولة العباسية أبا جعفر المنصور (ت158هـ/775م)، أدرك دور البلاغة السياسية في بناء دولته الفتيّة، ومدى الحاجة إلى كُتّاب يحسنون التعبير عما يختلج في صدور وعقول العباسيين من مشاعر وأفكار[5]، وخاصة بعد أن تجرّأ ابن المقفع (ت142هـ/760م) على تحبير ذلك الأمان لعمّه، وعلى ترجمة أو تأليف (كليلة ودمنة)، وعلى تسطير (رسالة الصحابة). وإذا كان

(1) صفوات، أحمد زكي، *جمهرة رسائل العرب*، ج2، ص508.

(2) صفوات، أحمد زكي، *جمهرة رسائل العرب*، ج2، ص508.

(3) صفوات، أحمد زكي، *جمهرة رسائل العرب*، ج2، ص508.

(4) ضيف، شوقي (ت1426هـ/2005م). *العصر العباسي الأول*، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1966، ص507.

(5) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/869م)، *البيان والتبيين*، ط1، بيروت، 1968، م2، ج3، ص65؛ عمر، فاروق، الثورة العباسية، ط1، دار الشروق، عمّان، 2001، ص172–191.

(2) ضيف، شوقي، *العصر العباسي الأول*، ص 508–509.

(3) ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م)، *عيون الأخبار*، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج1، ص104. وينظر للمقارنة أيضا: الجهشاري، أبو عبد الله، محمد بن عبدوس (ت331هـ/943م)، *كتاب الوزراء والكتّاب*، ط1، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988، ص13.

التشدّد في تحبير نص الأمان، يمكن تسويغه بخوف العم على نفسه وحرصه على توفير كل الضمانات السياسية اللازمة لبقائه على قيد الحياة[2]، فإن (كليلة ودمنة) و(رسالة الصحابة) لا تتطلبان كثيرًا من الفطنة، لإدراك حقيقة أنهما نقدان لاذعان لاستبداد الحكم والحاكم. وزاد هذا الإدراك من تبرّمه ببعض الولاة الذين يفتقرون إلى البديهة البلاغية المطلوبة، فضاق ذرعاً – على سبيل المثال – بوالي البصرة سلم بن قتيبة الذي كتب يسأله: هل أبدأ بحرق الدّور أم بحرق النخل؟ بعد أن أمره بمعاقبة بعض الثائرين على الدولة، فكتب إليه متهكّما: (أما بعد؛ فإني لو أمرتك بإفساد ثمرهم لكتبت إليَّ تستأذن في أيّهما تبدأ: أبالبَرَني أم بالشّهريز؟!) ثم عزله وولّى محمد بن سليمان. وكان يقول: " للكاتب على الملك ثلاثة: رفع الحجاب عنه، واتهام الوشاة عليه، وإفشاء السّر إليه"[3]، ما يؤكّد انحيازه لتمكين الكاتب وتحصينه، لأن ما يسطره يمثل خلاصة اعتقاد السلطة السياسية بنفسها، كما يمثل خلاصة رؤيتها لخصومها. وكلّما بدت الأولى راسخة مدوّية وبدت الثانية رادعة مزمجرة، جاءت النتائج مثمرة وحاسمة. وقد أورث هذه القناعة الراسخة لخلفائه من بعده: المهدي والهادي والرشيد والمأمون؛ فعبّروا عنها بطرق مختلفة.

بوفاة الخليفة هارون الرشيد (ت193هـ/809م) انفتح باب الصراع السياسي بين الفرس والعرب على مصراعيه، وسرعان ما تجسّد هذا الصراع في الاقتتال الذي نشب بين الخليفة الأمين(ت198هـ/814م) والخليفة المأمون (ت218هـ/834م) الذي نجح في حسم هذا الاقتتال لصالحه. وعلى الرغم من أنه مثّل بشخصه وبعلمه جامعًا مشتركاً ومُقنعًا للطرفين، فإن انشغاله بالقضاء على ثورة بابك الخُرّمي ومناجزة الروم قد استنفد كثيرًا من وقت وجهد وإمكانات الدولة العباسية[1]. كما أن إقدامه على إطلاق محنة القول بخلق القرآن الكريم– بتحريض من بعض شيوخ المعتزلة – أفقد الدولة العباسية تأييد التيار السُّني الذي كان يمثل الأغلبية في (بغداد) بقيادة أحمد بن حنبل[2] .

وبوفاة المأمون ومجيء المعتصم (ت227هـ/842م) إلى سدّة الحكم، تعزّز الطابع العسكري للدولة العباسية؛ لما كان المعتصم يتمتع به من شجاعة قتالية وقوة بدنية. لكن قِصَر المدة التي قضاها في

(1) ضيف، شوقي، *العصر العباسي الأول*، ص 28–39.

(2) للتوسع في محنة خلق القرآن، انظر: جدعان، فهمي، المحنة، بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام، دار الشروق، ط1، عمان ،1989، ص265–290؛ عبد الخالق، غسان، *الدولة والمذهب*، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، بيروت، 2000، ص100–107.

(3) ضيف، شوقي (ت1426هـ/2005م)، *العصر العباسي الثاني*، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1973، ص10–11.

الخلافة، ومواصلة امتحان فقهاء السّنة بخصوص القول بخلق القرآن الكريم – على الرغم من بساطة تكوينه الثقافي – واتجاهه إلى التخلص من ضغط الصراع العربي الفارسي على النفوذ السياسي، بالإكثار من استجلاب المماليك الترك الذين أفزعوا الناس في بغداد وهيمنوا على مفاصل الحكم؛ أدخل الدولة العباسية في طور جديد من أطوار الصراع، وأفقدها كثيرا من ملامح بلاغتها، جرّاء تصاعد هيمنة الأتراك الذين يتحدّرون من قبائل بدوية مقاتلة تفتقر إلى الثقافة [3].

وبوصول الخليفة المتوكل (ت247هـ/826م) إلى سدّة الخلافة، وإعلانه التخلّي عن مواصلة امتحان السنّة بخلق القرآن، وسعيه إلى التخلص من هيمنة الأتراك على الدولة العباسية – إلى درجة الارتحال إلى دمشق والتفكير الجدّي باتخاذها عاصمة للدولة بدلاً من بغداد التي يسيطر عليها الجنود والقادة الأتراك سيطرة تامة –انفتح باب من أبواب الأمل بانفراج التوتر المذهبي، وباستعادة قدر من بلاغة الدولة التي كادت تتبدّد، على أيدي نفر من الكّتاب الذين يفتقرون إلى أبسط مهارات الإنشاء السياسي[1].

ابن قتيبة؛ المصلح البلاغي المنتظر:

ولد ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) في الكوفة عام (ت212هـ/828م)[2]، وشبّ في بغداد وأخذ العلم في الفقه والحديث والتفسير والمنطق و العربية، عن عدد من علمائها وأدبائها المرموقين. ويبدو أنه أحرز شهرة كبيرة في سن مبكّرة حتى عُدّ إمام المدرسة البغدادية التي جمعت بين الرواية البصرية والرواية الكوفية. ولعل أبرز الأسباب التي أدّت إلى ذيوع اسمه تتمثل في: اتجاهه إلى التصنيف في حقول متعدّدة، وانحيازه إلى العرب ضد الشعوبيين على الرغم من أصله الفارسي، فضلا عن انحيازه لأهل السّنة ضد المعتزلة في ذروة محنة القول بخلق القرآن. تولّى ابن قتيبة القضاء بدينور لسنوات ثم عاد إلى بغداد، وصار له فيها مجلس علمي حافل حتى وافاه الأجل عام(ت276هـ/890م). وبوجه عام؛ هناك ما يشبه الإجماع على علمه وفضله بين القدماء[3]. وبوجه خاص؛ هناك إجماع على أهمية ما صنّفه من

(1) ضيف، شوقي، *العصر العباسي الثاني*، ص12.

(2) انظر ترجمة وافية له عند: ابن خلّكان، شمس الدين، أحمد بن محمد (ت681هـ/1282م)، *وفيات الأعيان*، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، (د.ت.)، م3، ص42–44.

(3) ابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، م3، ص43.

(4) إسماعيل، عزالدين، *المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي*، ط1، دار المسيرة، عمان،2003 ، ص138–143.

كتب في حقول اللغة والأدب والنقد بين القدماء والمحدثين.[4] ولا نبالغ إذا قلنا إن (الشعر والشعراء) و(عيون الأخبار) و(أدب الكاتب) تعّد من أبرز مصادر الأدب العربي قديمًا وحديثًا. وإذا كان الجاحظ (ت255هـ/869م) أخذ على عاتقه: إعادة الاعتبار للبيان العربي في ضوء الاستهداف الشعوبي، وتعظيم دور المتكلمين المعتزلة في تأسيس مبحث البلاغة العربية، فإن ابن قتيبة الذي شاطره الدفاع عن البيان العربي في ضوء الاستهداف الشعوبي، لم يدّخر وسعاً لإصلاح بلاغة الدولة العباسية، ولتحميل المتكلّمين بوجه عام والمعتزلة بوجه خاص مسؤولية تأزيم البلاغة الرسمية. وقد حفّزه إلى القيام بذلك، عدد من الأسباب التي يمكن إجمالها على النحو التالي:

- **أولاً:** ثقافته الموسوعية؛ فهو الندّ الفكري والأدبي السُّني للجاحظ المعتزلي على كلّ الصُّعد؛ سواء على صعيد التضلّع بعلوم الفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام، أم على صعيد الإلمام بتاريخ وآداب وعلوم اللغة العربية، أم على صعيد احتراف الكتابة وانتزاع إعجاب المجايلين واللاحقين بتميّز أُسلوبه فيها[1].
- **ثانياً:** ارتياحه الشديد لإقدام المتوكّل على إيقاف العمل بمحنة القول بخلق القرآن الكريم، وإعادة الاعتبار لأهل السنة، فضلاً عن سعيه الدؤوب للتخلّص من هيمنة الأتراك على مفاصل الدولة العباسية [2].
- **ثالثاً:** مراهنته على عقلانية وتفهم وبلاغة الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان (ت263هـ/877م) الذي شاطره – فيما يبدو– إحساسه بأزمة البلاغة الرسمية للدولة العباسية، على الرغم من أصله التركي. بدليل أنه أُعجب بكتاب (أدب الكاتب) وقدَّم مؤلّفه للمتوكّل الذي أوعز بتوليته قضاء دينور[3]. والحق أن هناك ما يشبه الإجماع على فضل أبي الحسن وحنكته السياسية والإدارية وإخلاصه للمتوكل[4]، إلى درجة أن الأخير ألحق به اثني عشر ألفا من الجنود العرب

(1) إسماعيل، *المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي*، ص138.

(2) ضيف، *العصر العباسي الثاني*، ص43.

(3) ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم(ت276هـ/889م)، *أدب الكاتب*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1963، ص5.

(4) الزركلي، خير الدين (ت1396هـ/ 1976م)، *الأعلام*، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، م8/ص198.

ليكونوا بإمرته، وهي خطوة تؤكد النوايا التعريبية التي كانت تراود المتوكل، كما تؤكد ثقته بالوجهة العروبية لأبي الحسن[1] .

(أدب الكاتب) والطموح لإصلاح الكتابة الرسمية

جاء الكتاب في مقدّمة وأربعة فصول؛ أوله (كتاب المعرفة) الذي يستهله ابن قتيبة بباب معرفة ما يضعه الناس في غير موضعه ويختمه بباب تسمية المُتَضادِيَنْ باسم واحد. وثانيها (كتاب تقويم اليد) الذي يستهله بباب إقامة الهجاء ويختمه بباب ما يُقصر فإذا غُيّر بعض حركات بنائه مُدَّ. وثالثها (كتاب تقويم اللسان) الذي يستهله بباب الحرفين اللذين يتقاربان في اللفظ وفي المعنى ويلتبسان ويختمه بباب ما يُغيّر من أسماء البلاد. ورابعها (كتاب الأبنية) الذي يستهله بباب فَعَلت وأفعلت باتفاق المعنى ويختمه بباب أبنية نعوت المثلّث. والحق أن الكتاب يمثل دليل عمل مكثف ومرشدًا أمينا لمن أراد التعّمق في أسرار مهنة الكتابة؛ معرفياً وصرفياً ونحوياً وبلاغياً. وليس أدلَّ على أهمية (أدب الكاتب) من قول ابن خلدون (ت808هـ /1406م) الذي عاش عصراً متأخرًا جدًا عن عصر ابن قتيبة: "وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه – يعني الأدب – أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها!"[2].

إن هذه الشهادة الخلدونية الحاسمة، لا تؤكد مركزية الثقافة الأدبية المشرقية فقط، بل هي تؤكد مركزية ابن قتيبة في هذه الثقافة[3]. كما تفصح إلى حد بعيد عن استيعاب الدور الإصلاحي البلاغي الذي اضطلع به ابن قتيبة في كتابه (أدب الكاتب) تحديداً. والطريف في الأمر أن هذا الكتاب – مقارنة بكتب ابن قتيبة الأخرى مثل (الشعر والشعراء) و(عيون الأخبار) اللذين نثر فيهما كثيراً من آرائه النقدية والبلاغية واللغوية بكثرة – يبدو مدرسيًا. وعلى الرغم من ذلك فإن الوجهة التعليمية البلاغية الإصلاحية

(1) ضيف، *العصر العباسي الثاني*، ص13.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ/1406م)، *المقدّمة*، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط3، دار النهضة مصر، القاهرة، (د.ت.)، م3، ص1277.

(3) عبد الخالق، غسان، *مفهوم الأدب في الخطاب الخلدوني*، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، بيروت، 2007، ص 187.

فيه، لم تخف على المتأخّرين مثل شيوخ ابن خلدون. ومع أننا نشاطر هؤلاء الشيوخ الإعجاب بالجَلَد الذي تمتع به ابن قتيبة على صعيد الإحاطة بتفاصيل المهارات التي يحتاجها الكاتب حتى يغدو كاتباً بليغاً، فإننا نزعم أن المقدّمة التي ساقها لتسويغ عرض هذه المهارات، هي أبرز ما في الكتاب من منظور النقد الثقافي؛ لأنها انطوت على كثير من الأنساق المضمرة التي عرّت واقع الكتابة والكتّاب في أواخر العصر العباسي الأول.

مقدّمة (أدب الكاتب) وأنساقها المضمرة

على الرغم من أن مقدّمات كتب ابن قتيبة النقدية، قد استرعت انتباه باحثين بارزين مثل الدكتور عزالدين إسماعيل[1] – لما اتسمت به من تميّز منهجي ولما انطوت عليه من نظرات نقدية– فإن مقدمة (أدب الكاتب) تحديداً، لم تستأثر بالاعتناء الذي تستحقه، مع أنها الأكثر أهميّة وجرأة، مقارنة بغيرها من مقدّمات كتب ابن قتيبة. وقد اتسمت هذه المقدّمة من الناحية الأسلوبية بما يلي:

أولاً: الإسهاب الملحوظ ؛ فقد امتدت نحو ست عشرة صفحة! ومع أن ابن قتيبة يميل إلى الاستفاضة في مقدمات كتبه – حتى صار هذا التطويل ميسماً من مياسم تميّزه المنهجي– إلا أن إسهابه في هذه المقدمة، قد اضطلع بتهيئة القارئ أو المتلقي نفسياً وذهنياً، لما سوف يسوقه من مسائل متخصصة ودقيقة.

ثانياً: الاقتضاب في التحميد؛ فخلافاً لإطنابه على صعيد التحميد في مقدّماته الأخرى، نراه هنا يوجز إيجازاً لافتاً: "أما بعد حمد الله بجميع محامده والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على رسوله المصطفى وآله؛ فإني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين...".[2]

ثالثاً: الإسراع في الوصول إلى الغرض الرئيس دون مواربة وبعد سطر واحد فقط ، على نحو يشعرنا بأهميّة الموضوع الذي يتصدّى له: "فإني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه

(1) إسماعيل، *المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي*، ص 139.

(2) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص1.

(2) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص1.

(3) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص2.

متطيّرين، ولأهله كارهين: أما الناشئ منهم فراغب عن التعليم، والشادي تارك للازدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس؛ ليدخل في جملة المجدودين، ويخرج عن جملة المحدودين، فالعلماء مغمورون وبكرّة الجهل [دولة الجهل] مقموعون!".[2]

رابعاً: الجرأة الشديدة؛ إذ على الرغم من أن مقدمة (أدب الكاتب) قد انطوت على كثير من الأنساق المضمرة اللافتة كما سنوضح لاحقاً، فإن النسق المعلن لهذه المقدمة ظل متسماً بالصراحة والمكاشفة وتسمية الأشياء بمسمّياتها، وعلى نحو تكفّل بإيصال ما يستشعره ابن قتيبة من قلق شديد جرّاء انهيار بلاغة كتّاب الدولة العباسية: "نُبذت الصنائع، وجُهل قدر المعروف، وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس، وزُهد في لسان الصدق وعقد الملكوت. فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس"[3].

خامساً: المباشرة والوضوح؛ فابن قتيبة يبدو مدركاً كل الإدراك، حقيقة أنه ملزم بالوضوح وكل ما يقتضيه مثل: سهولة الألفاظ وضرب الأمثلة، حتى يحقّق الحد المطلوب من الاستجابة لمشروعه البلاغي الإصلاحي. وهو مشروع لا يحتمل التورية أو الغموض: "فإني رأيت كثيراً من كُتّاب زماننا كسائر أهله، قد استطابوا الدّعة واستوطؤُوا مركب العجز، وأعفوا أنفسهم كدّ النظر وقلوبهم من تعب التفكير، حين نالوا الدّرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة" [1].

الأنساق المضمرة في مقدّمة (أدب الكاتب)

إذا كان النسق العام المعلن في مقدّمة (أدب الكاتب) يتمثل في الرغبة بتثقيف كتّاب الدواوين وإصلاح ما يمكن إصلاحه من معارفهم ومهاراتهم، فإن هذه المقدّمة قد انطوت – في الوقت نفسه – على كثير من الأنساق المضمرة التي يمكن إجمالها على هذا النحو:

أولاً: تمثل النسق العام المضمر في مقدّمة (أدب الكاتب) بإدانة العجمة والرّكاكة التي آلت إليها بلاغة الدولة العباسية، بدليل أن ابن قتيبة لم يتردّد في القول: "وأي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتّاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسرّه، فقرأ عليه يوما كتاباً وفي الكتاب: " ومُطرنا مطرًا كَثُر عنه الكَلَأ"، فقال الخليفة ممتحناً له: وما الكلأ؟ فتردّد في الجواب وتعثّر لسانه، ثم قال: لا أدري، فقال:

(1) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص6.

(2) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص7.

سلْ عنه!"[2]. والمؤسف في هذا المثل الذي ضربه ابن قتيبة للتدليل على الحال الذي صار إليه كُتّاب الدولة العباسية، أن (الكَلَأ) من المفردات البديهية التي يردّدها ويعرف معناها صبيان الكتاتيب، ناهيك بأنها من الكلمات المفتاحية في حياة العرب؛ بدواً وفلّاحين. لكن غلبة الفرس والترك على دواوين الخلافة، وجهل معظمهم بمعجم الحياة العربية، جعل هذا الكاتب يرتبك ويتلجلج، ثم يعترف بأنه لا يعرف الإجابة!

ثانياً: التعريض بأميّة المعتصم فضلا عن التعريض بركاكة كتّابه، وقد زاد من وقع هذا التعريض حتى صار تشهيرا، ما أكده الجواليقي في تفسيره لأدب الكاتب حين قال: "والخليفة السائل عن الكلأ المعتصم، وكان أُمّياً؛ وذلك لأن الرشيد سمعه يقول وقد مات بعض الخدم: استراح من المكتب، فقال الرشيد: أوَقَد بلغت منك كراهية المكتب هذا؟! وأمر بإخراجه منه. والرجل الذي اصطفاه هو أحمد بن عمّار بن شاذي... فورد كتاب على المعتصم من صاحب البريد بالجبل يصف فيه خصب السنة وفيه (كثرة الكلأ) فقال المعتصم لأحمد بن عمّار: ما الكلأ؟ فقال: لا أدري، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون: خليفة أُميّ وكاتب أُميّ!"[1]. ومن المرجّح أن هذا الموقف حقيقي وليس ضرباً من ضروب المبالغة، لأن ابن قتيبة ما كان ليغامر بإغضاب المتوكّل والتعريض بوالده، لولا أن الحكاية كانت معروفة للناس، بدليل أن الجواليقي قد أوردها بتفاصيلها الدقيقة.

ثالثاً: التعريض باستغراق المتوكّل في اللهو والمجون بدلاً من الاتجاه لرعاية العلم والأدب؛ فمما يذكر لابن قتيبة في مقدمة (أدب الكاتب)، أن إعجابه بالمتوكّل الذي أعاد الاعتبار إلى المذهب السني وأوقف محنة القول بخلق القرآن، لم يمنعه من التعريض باستغراقه المشهور في حياة الترف والبذخ والمتعة التي بلغت حدوداً لا يملك معها الباحث إلا التساؤل عن الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال فيها، إلى درجة الزعم بأنه كان يملك أربعة آلاف جارية [2]، فقال: "خوى نجم الخير، وكسدت سوق البرّ، وبارت بضائع أهله، وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل نقصا، وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس، والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخَلَق، وآضت المروءَات في زخارف النجد وتشييد البنيان، ولذّات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة النّدمان!"[3].

(1) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص6 هامش 5.

(2) ضيف، *العصر العباسي الثاني*، ص83.

(3) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص2.

رابعاً: التعريض بالشعوبيين والزنادقة؛ فمما يسترعي نظر الباحث المدّقق، أن ابن قتيبة لم يتردّد في إدانة التفلسف الذي يفضي إلى الطعن في الإسلام والقرآن والرسول الكريم، فقال: "أرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتّكذيب وهو لايدري مَنْ نَقَله؛ قد رضي عوضا من الله ومما عنده بأن يقال: "فلان لطيف" و"فلان دقيق النظر" ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه، نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، فنصب لذلك وعاداه، وانحرف عنه إلى علم قد سلّمه له ولأمثاله المسلّمون، وقلّ فيه المتناظرون، له ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم؛ فإذا سمع الغُمْر والحَدَث الغِرّ قوله الكون والفساد، و[سَمْع الكِيان]، والأسماء المفردة، والكيفية والكمية والزمان والدليل، والأخبار المؤلّفة؛ راعه ما سمع، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعها لم يَجِلَ منها بطائل!" [1].

ومن المرجّح أن ابن قتيبة لم يقصد في هذا الاقتباس الذي طال –على الرغم من اجتهادنا لاختصاره – إلى التنديد بالفلسفة، لأنه كان من أهل النظر في كتبها ولم يتردّد في الإشارة إلى هذه الكتب أو الاقتباس منها في مؤلفاته، ولكنه قصد إلى إدانة الانبهار بهذه الكتب والانطلاق منها للنيل من ثوابت العقيدة الإسلامية، ناهيك باتخاذها بديلاً عن العلوم الشرعية وعلوم العربية. وقد استأثرت هذه الوجهة باعتناء الدكتور إحسان عباس فذهب إلى القول – نقلاً عن هاملتون جب– بأن ابن قتيبة قد تطوّع في كتبه لتزويد هؤلاء الكتّاب بما لا يجوز أن يجهلوه من علوم العربية [2].

خامساً: التعريض بأهل الكلام؛ فاستكمالا لحملته على رموز الانبهار بمعارف وأدوات الثقافة الأجنبية والدعوة للاكتفاء بها بديلاً عن علوم العربية، يقول: (بلغني أن قومًا من أصحاب الكلام سألوا محمد بن الجهم أن يذكر لهم مسألة من حد المنطق حسنة لطيفة، فقال لهم: ما معنى قول الحكيم "أول الفكرة آخر العمل"، وأول العمل آخر الفكرة؟ فسألوه التأويل، فقال لهم: مثل هذا كمثل رجل قال: إني صانع لنفسي كِنّا فوقعت فكرته على السقف، ثم انحدر فعلم أن السقف لا يكون إلا على حائط، وأن الحائط لا يقوم إلا

(1) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص3–4.

(2) عباس، إحسان (ت 1424هـ/2003م)، *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*، طبعة جديدة، دار الشروق، عمان ، 1993، ص93.

على أُس، ثم بالحائط، ثم بالسقف؛ فكان ابتداء تفكّره آخر عمله وآخر عمله بدء فكرته؛ فأية منفعة في هذه المسألة؟ وهل يجهل أحد هذا حتى يحتاج إلى إخراجه بهذه الألفاظ الهائلة؟... ولو أن مؤلّف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعدَّ نفسه من البُكْم، أو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب) [1].

ومن المرجّح، أن ابن قتيبة لم يقصد في هذا الاقتباس الذي طال أيضاً – على الرغم من اجتهادنا لاختصاره– إلى التهجّم على الكلام أو علم المنطق – لأنه كان متكلماً وطرفاً رئيساً في المواجهة بين أهل الاعتزال وأهل السنة – ولكنه قصد إلى إدانة المبالغة الشديدة في التجريد والتفذلك غير المنتجيْن، على طريقة السفسطائيين الذين صار التفّنن في إثبات الشيء ونقيضه هدفاً رئيساً لهم، بدلاً من الإخلاص للمعرفة والحقيقة.

ولا يخفى على القارئ الحصيف، أن هذا التعريض اللاذع بالمتكلمين، يستهدف في المقام الأول المعتزلة بوجه عام والجاحظ بوجه خاص. وإن كانت سطوة المعتزلة لم تسمح لابن قتيبة بالإفصاح عن هذا الاستهداف، فإنه لم يدّخر وسعاً في سياق آخر لنفث ما في صدره من مآخذ على الجاحظ فقال: (ثم نصير إلى الجاحظ، وهو آخر المتكلمين، والمعاير على المتقدمين، وأحسنهم للحجة استثارة، وأشدّهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة. ومرة يفضل علياً رضي الله عنه ومرة يؤخّره، ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتبعه قال: ابن الجّماز، وقال إسماعيل بن غزوان: كذا وكذا من الفواحش. ويجلّ رسول الله صل الله عليه وسلم، عن أن يذكر في كتاب ذُكرا فيه فكيف في ورقة، أو بعد سطر وسطرين؟![2] ولاريب في أن هذا الموقف الحاسم من المتكلمين ومن الجاحظ، والذي لا يخلو من التحامل الذي أجّجته محنة خلق القرآن، قد دفع ابن تيمية لاحقا، للتنويه بأن ابن قتيبة من المنتسبين لمذهب أحمد بن حنبل

(1) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص 4–5.

(2) ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/889م)، *تأويل مختلف الحديث*، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 111.

(2) ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ/ 1263م)، *تفسير سورة الإخلاص*، ط1، إدارة المطبعة المنيرية، دمشق، 1934، ص 120–121.

والمنتصرين لمذاهب السنّة المشهورة، وله في ذلك مصنّفات متعدّدة، وأن صاحب كتاب (التحديث بمناقب أهل الحديث) وصفه بأنه أحد الأعلام الأئمة والعلماء والفضلاء وأجودهم تصنيفاً وأحسنهم ترصيفاً. كما لم يدّخر وسعاً للتنويه أيضا بأن أهل المغرب يعظِّمونه ويقولون بأن من استجاز الوقيعة فيه فهو زنديق، وأن كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه، ثم أكد قائلا: هو لأهل السنّة مثل الجاحظ للمعتزلة فإنه خطيب (متكلّم) السنّـــة كما أن الجاحــظ خطيب (متكلّم) المعتزلة!(2).

سادساً: السخرية من كتّاب الخلافة؛ وكأن ابن قتيبة لم يكفه التشهير بكتّاب المعتصم الذين يجهلون أبسط مفردات الحياة العربية، فزاد على ذلك – من باب إكساب معضلة تردّي بلاغتهم بعداً كاريكاتوريا – التهكّم الشديد على أحد كتّاب الخلافة الذي قرأ (حاضر طيء) على أنها (حاضِر طي) أو (جاء ضرطي) فصار أضحوكة الحاضرين. وهذه النادرة المضحكة المبكية، ليست من ابتداع ابن قتيبة، بل هي حقيقة متداولة، بدليل أن شارح (أدب الكاتب) يصّرح باسم القائد التركي واسم كاتبه التعس الذي تنطّح لقراءة كتاب على مسمع الخليفة(1)، وهو لا يعرف – كما يبدو – قبيلة طيء التي تُعّد من أشهر القبائل العربية.

سابعاً: التنديد بقلّة خبرة الكُتّاب ودورها في تضييع حقوق الدولة والناس؛ فلم يفت ابن قتيبة حقيقة أن تردّي خبرة الكُتّاب النظرية والعملية، من شأنه أن يلحق بالدولة وبالناس أضراراً مادية فادحة، فقال: (ولقد حضرتُ جماعة من وجوه الكتّاب والعمال العلماء بتحلّب [تحصيل] الفيء وقتل النفوس فيه، وإخراب البلاد، والتوفير العائد على السلطان بالخسران المبين، وقد دخل عليهم رجل من النخّاسين ومعه جارية رُدّت عليه بسن شاغية زائدة، فقال: تبرّأت إليهم من الشّغا فردّوها عليّ بالزيادة، فكم في فم الإنسان من سن؟ فما كان فيهم أحد عرف ذلك، حتى أدخل رجل منهم سبابته في فيه يعدّ بها عوارضه فسال لعابه، وضم رجل فاه وجعل يعدّها بلسانه؛ فهل يحسن بمن ائتمنه السلطان على رعيته وأمواله ورضي بحكمه ونظره أن يجهل هذا من نفسه؟ وهل هو في ذلك الا بمنزلة من جهل عدد أصابعه(2) ؟!

ثامناً: إدانة جهل الكتّاب بقاعدة (لكل مقام مقال)؛ إلى درجة أن الكاتب صار يعظّم نفسه – دون أن يدري– وهو يكتب لسيّده، أو يصغّر قدر مولاه وهو يكتب باسمه إلى أحد مرؤوسيه، وما كان هذا ليحدث

(1) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص7.

(2) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص7–8.

(3) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص14– 15.

لولا أن كلا من الكاتب والسّيد، لم يعودا يمتلكان الحد الأدنى من مهارات النحو والصرف واللغة والبيان، فألفى ابن قتيبة الكُتّاب و"قد تركوا تفقّد هذا من أنفسهم وخلطوا فيه؛ فليس يفرّقون بين من يُكتب إليه (فرأيك في كذا) وبين من يُكتب إليه (فإن رأيت كذا)، (فرأيك) إنما يكتب بها إلى الأكفاء والمساوين، ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأُستاذين؛ لأن فيها معنى الأمر ولذلك نُصبت"[3].

ابن قتيبة يتطوّع لإيجاد المخرج

ما كان لابن قتيبة أن يرتقي هذا المرتقى الصعب، دون أن يجشّم نفسه عناء التأشير على المخرج المناسب؛ كأن يقترح على الكتّاب الحلول العملية التي يمكن أن تتكفل بإقالة عثراتهم وصيانة بلاغاتهم: "فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان، وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره؛ جعلت له حظاً من عنايتي، وجزءاً من تأليفي؛ فعملت لمغْفِل التّأديب كتباً خفافا في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كل كتاب منها على فن، وأعفيته من التطويل والتثقيل؛ لأنشّطة لتحفّظه ودراسته إن ناءت به همّته"[1].

وحرصاً من ابن قتيبة على إتمام الفائدة المرجوّة، لم يدخر وسعاً لتذكير الكتّاب بضرورة الإحاطة بجملة من العلوم والمهارات – فضلاً عما جاء في كتابه – وهي:

أولاً: الإلمام النظري والتمرّس العملي بالرياضيات والهندسة[2].

ثانياً: التضلّع بالفقه وأصوله[3].

ثالثاً: الإلمام بالحديث النبوي الشريف وعلم الأخبار[4].

رابعاً: اجتناب (التقعير والتقعيب) عملاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون"[5].

(1) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص8.

(2) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص9–10.

(3) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص10.

(4) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص11.

(5) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص13. وانظر النص الكامل للحديث عند: ابن حنبل، أحمد بن حنبل (ت 241هـ/855م)، *مسند أحمد*، حقّقه وخرّجه شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت.)، ج29، ص279.

خامساً: اجتناب التعقيد في بناء الجمل لأنه يفضي بالكاتب إلى تعقيد النحو [1].

سادساً: اجتناب الوحشي والغريب من الألفاظ[2].

سابعاً: الابتعاد عن الجمع بين المدح والهجاء تجنباً للتناقض[3].

ثامناً: الإلمام بمواضع الإيجاز ومواضع الإطناب[4].

تاسعاً: مراعاة القاعدة البلاغية المشهورة: (لكل مقام مقال؛ فلا يعطي الكاتبُ خسيسَ الناس رفيع الكلام ولا رفيعَ الناس وضيع الكلام)[5].

عاشراً: التزام الأخلاق الحميدة، ومجانبة الكذب والغيبة والمزاح النابي[6].

ما بعد (أدب الكاتب)

حرصاً منا على استيفاء مطلوب هذا البحث، وتأكيداً للأهمية الاستثنائية التي تمتّعت بها مقدمة (أدب الكاتب)، لا يسعنا التغافل عما أورده ابن خلّكان في معرض ترجمته لابن قتيبة، حيث قال: "والناس يقولون: إن أكثر أهل العلم يقولون: إن «أدب الكاتب» خطبة بلا كتاب ... وهذا فيه نوع تعصّب عليه، فإن «أدب الكاتب» قد حوى من كل شيء وهو مفنَّن، وما أظن حَملَهم على هذا القول إلا أن الخطبة طويلة ... وقد شرح هذا الكتاب أبو محمد بن السيد البطليوسي.. شرحاً مستوفى، ونبّه على مواضع الغلط منه، وفيه دلالة على كثرة اطلاع الرجل، وسمّاه "الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب"[2].

ولولا أننا نأخذ على ابن خلّكان قوله: "والناس يقولون : إن أكثر أهل العلم يقولون" – فكيف للعوام أن يقيّدوا أقوال العلماء؟ – لقلنا: إنه قد كفانا بمرافعته الآنفة مؤونة الدفاع عن أدب الكاتب ومقدّمته، وهو

(1) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص13.

(2) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص14.

(3) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص15.

(4) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص15.

(5) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص14-15.

(6) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص11.

(2) ابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، م3، ص43.

(2) خليفة، حاجي، مصطفى بن عبدالله (ت1068هـ/1657م)، *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون*، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت.)، ج1، ص47-48.

دفاع يؤكد رسوخ الكتاب والكاتب من جهة، كما يؤكد وجود فئة أخذت على عاتقها مهمة النيل من الكتاب والكاتب لأسباب جاءت المقدمة على تفصيلها من جهة ثانية. وإذا كان ابن خلّكان قد تطوّع للتنويه بأن ابن السيد البطليوسي (ت521هـ/1128م) قد شرح أدب الكاتب تأكيداً لأهمية الكتاب والكاتب، على الرغم من مرور عقود طويلة على تأليفه، فقد أحصى حاجي خليفة مالا يقل عن عشرة شروح للكتاب أو لمقدمته على مرّ العصور؛ وأبرزها دون منازع: شرح أدب الكاتب للجواليقي (ت540هـ/1146م)[2].

الخاتمة

لم يدخر الباحث وسعًا في هذه المقاربة الثقافية لنموذج من النثر العربي؛ لإبراز التلازم الوطيد بين السياسة والفكر والأدب في العصر العباسي من جهة، ولإبراز التلازم الوطيد بين سيادة الدولة العباسية وبلاغتها السياسية من جهة ثانية. وبعد أن أظهر وجاهة الدوافع السياسية والفكرية والأدبية التي حَدَت بابن قتيبة لتأليف " أدب الكاتب " – الذي مثّل بمقدّمته وفصوله الأربعة استجابة معرفية عمليّة ومكثّفة – عمل على إبراز جرأة ابن قتيبة في تشخيص ملامح الأزمة البلاغية للدولة العباسية بعد وفاة المأمون؛ سواء على صعيد النسق المعلن لهذا التشخيص – وهو إصلاح حال الكتابة والكُتّاب – أم على صعيد النسق المضمر له– وهو إدانة عُجمة كتّاب الدولة العباسية وركاكة أساليبهم بسبب تفشي أفكار الشعوبية والزندقة في أوساطهم – فضلاً عن التعريض بتقصير الخلافة في رعاية العلم والأدب. وعلى الرغم من أن "أدب الكاتب" قد استأثر بتقدير الأقدمين – تنويهًا وشرحًا– فإنه لم ينج من محاولات النيل منه، بدعوى الإسهاب في مقدمته، التي مثّلت أخطر وأثمن ما فيه من طروحات. ولعل ما اشتمل عليه هذا البحث من تحليلات وتمخّض عنه من نتائج، يؤكد ضرورة إيلاء البلاغة السياسية العربية في العصر العباسي وفي غيره من العصور، مزيداً من الدراسة والبحث، في ضوء منهجية النقد الثقافي.

المصادر والمراجع

إسماعيل، عز الدين (ت1428هـ/2007م)، *المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي*، ط1، دار المسيرة، عمان، 2003.

ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ/1263م)، *تفسير سورة الإخلاص*، ط1، إدارة المطبعة المنيرية، دمشق، 1934.

ابن حنبل، أحمد بن حنبل (ت241هـ/855م)، *مسند أحمد*، حقّقة وخرّجه شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت.).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1406م)، *المقّدمة*، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار النهضة مصر، ط 3، القاهرة، (د.ت.).

ابن خلّكان، شمس الدين، أحمد بن محمد (ت681هـ/1282م)، *وفيات الأعيان*، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت.).

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ/869م)، *البيان والتبيين*، ط1، دار التراث العربي، بيروت، 1968.

جدعان، فهمي، *المحنة* – بحث في *جدلية الديني والسياسي في الإسلام*، ط1، دار الشروق، عمان، 1989.

الجهشياري، أبوعبدالله، محمد بن عبدوس(ت331هـ/943م)، *كتاب الوزراء والكتّاب*، ط1، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988.

حاجي، خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت1068هـ/1657م)، *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون*، مكتبة المثنى بغداد، (د.ت.).

الزركلي، خير الدين بن محمود (ت1396هـ/1976م)، *الأعلام*، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.

شوقي ضيف (ت1426هـ/2005م)، *العصر العبّاسي الثاني*، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1973.

صفوت، أحمد زكي (ت1395هـ/1975م)، *جمهرة رسائل العرب*، ط1، المكتبة العلمية، بيروت، 1937.

ضيف، شوقي (ت1426هـ/2005م)، *العصر العبّاسي الأول*، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1966.

ضيف، شوقي (ت1426هـ/2005م)، *البلاغة – تطّور وتاريخ*، ط8، دار المعارف، القاهرة، 1965.

ضيف، شوقي، (ت1426هـ/2005م)، *الفن ومذاهبة في النثر العربي*، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1960.

عباس، إحسان (ت1414هـ/2003م)، *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*، دار الشروق، عمان، 1993.

عبد الخالق، غسان، *الأخلاق في النقد العربي*، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، بيروت، 1999.

عبد الخالق، غسان، *الدولة والمذهب*، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، بيروت، 2000.

عبد الخالق، غسان، *مفهوم الأدب في الخطاب الخلدوني*، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، عمّان، بيروت،2007.

عمر، فاروق، *الثورة العبّاسية*، ط1، دار الشروق، عمّان، 2001.

ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/889م)، *تأويل مختلف الحديث*، المكتب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1999.

ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م)، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1963.

ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م)، عيون الأخبار، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

References

‘Abbās, Ihsān, (d. 1424 A.H. / 2003 A.D.), *Tārīkh al-Naqd al-Adabī ‘inda al-‘Arab*, Dār al-Shurūq, Amman, 1993.

‘Abdulkhāliq, Ghassān, *al-Akhlāq fī al-Naqd al-‘Arabī*, al-Mu’ssasa al-‘Arabiyya li al-Dirasāt wa al-Nashr, 1st edition, Amman, Beirut, 1999.

‘Abdulkhāliq, Ghassān, *al-Dawla wa al-Madhhab*, al-Mu’ssasa al-‘Arabiyya li al-Dirasāt wa al-Nashr, 1st edition, Amman, Beirut, 2000.

‘Abdulkhāliq, Ghassān, *Mafhūm al-□Adab fī al-khiṭāb al-Khaldūnī*, al-Mu’ssasa al-‘Arabiyya li al-Dirasāt wa al-Nashr, 2nd edition, Amman, Beirut, 2007.

Ḍayf, Shawqī, (d. 1426 A.H. /2005 A.D.) *al-Balāghah; Taṭawwir wa Tārīkh*, Dār Ma‘ārif, 8th edition, Cairo, 1965.

Ḍayf, Shawqī, (d. 1426 A.H. /2005 A.D.), *al-‘Aṣr al-‘Abbāsī al-Awwal*, 2nd edition, Dār al-Ma‘ārif, Cairo, 1973.

Ḍayf, Shawqī, (d. 1426 A.H. /2005 A.D.), *al-‘Aṣr al-‘Abbāsī al-Thānī*, Dār al-Ma‘ārif, 2nd edition, Cairo, 1966.

Ḍayf, Shawqī, (d. 1426 A.H. /2005 A.D.), *al-Fan wa Mathahibu fī al-Nathr al-‘Arabī*, Dār al-Ma‘ārif, 3rd edition, Cairo, 1960.

Ibn Ḥanbal, Aḥmad bin Ḥanbal (d. 241 A.H. / 855 A.D.), *Musnad Aḥmad*, edited by Shu‘ayb al-Arnā’ūṭ and ‘Ādil Murshid, Mu’ssasat al-Risālah, Beirut, (d.n.).

Ismā‘īl, ‘Izz al-Dīn (d.1428A.H. /2007A.D.), *al-Maṣādir al-Adabīyah wa al-Lughawīyah fī al-Turāth al-‘Arabī*, 1st edition, Dār al-Masīrah, Amman, 2003.

Jad'ān, Fahmī, *al-Miḥnah – Baḥth fī Jadalīyat al-Dīnī wa-al-Siyāsī fī al-Islām*, 1st edition, Dār al-Shurūq, Amman, 1989.

Al-Jāḥiẓ, Abū Uthman, 'Amr bin Baḥr (d.255 A.H./869 A.D.), *al-Bayān wa al-Tabyīn*, 1st edirion, Beirut, 1968.

Al-Jahshiyārī, Abū Abdallāh, Muḥammad bin ʿAbdūs (d.331 A.H./ 943 A.D.), *Kitāb al-Wuzarā' wa al-Kuttāb*, Dār al-Fikr al-Hadīth, 1st edition, Beirut, 1988.

Ibn Khaldūn, 'Abd al-Raḥmān bin Muḥammad (d.808 A.H./ 1406 A.D.), *al-Muqaddimah*, edited by ʿAlī ʿAbd al-Waḥid Wafi, Dār Nahdat Maṣr, 3rd edition, Cairo, (d.n.).

Khalīfa, Ḥājjī, Muṣṭafā bin 'Abd Allāh (d.1068 A.H./ 1657 A.D.), *Kashf al-Ẓunūn 'an Asāmī al-Kutub wa al-Funūn*, Maktabat al-Muthannā, Baghdad, (d.n.).

Ibn Khallikān, Shams al-Dīn, Aḥmad bin Muḥammad (d.681 A.H./ 1282 A.D.), *Wafayāt al-Aʿyān*, edited by Ihsān 'Abbās, 1st edition, Dār Sādir, (d.n).

Ibn Qutayba, Abū Muḥammad, 'Abd Allāh bin Muslim (d. 76 A.H. / 889 A.D.), *Adab al-Kātib*, Muhammad Muḥyī al-Dīn 'Abd al-Hamīd, al-Maktaba al-Tijariyyah al-Kubrā, 4th edition, Cairo, 1963.

Ibn Qutayba, Abū Muḥammad, 'Abd Allāh bin Muslim (d. 76 A.H. / 889 A.D.), Ta'wīl Mukhtalif al- Ḥadīth, al-Maktab al-Islāmī, 2nd edition, Beirut, 1999.

Ibn Qutayba, Abū Muḥammad, 'Abd Allāh bin Muslim (d. 76 A.H. / 889 A.D.), *'Uyūn al-Akhbār*, Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 3rd edition, Beirut, 2003.

Safwat, Aḥmad Zakī (d.1395 A.H./ 1975 A.D.), *Jamh'rat Rasa'il al-'Aarb*, al-Maktaba al-'Ilmiyyah, 1st edition, Beirut, 1937.

Ibn Taymiyyah, Abū al-ʻAbbās, Aḥmad bin ʻAbd al-Ḥalīm (d. 728 A.H. / 1263 A.D.), *Tafsīr Surat al-Ikhlās*, Idārat Al-Matba'ah al-Muniriyyah, 1st edition, Damascus, 1934.

Al-Ziriklī, Khayr al-Dīn bin Mahmūd (d.1396 A.H./ 1976 A.D.), *al-Aʻlām*, Dār al-ʿIIm li al-Malayīn, 6th edition, Beirut, 1984.